

مفامرات تاجر

ظل الانكليز متخلفين فى التوسع التجارى ، الذى اعقب اكتشاف جزائر الهند الغربية ، وطريق رأس الرجاء الصالح الى الهند • بينما اسرع الاسبان الى استكشاف جزائر الفلين ، والفرنسيون جزيرة صومطرة ، والبرتغاليون العديد من الاراضى فيما وراء الهند • ولم ينشد البحارة والتجار الانكليز تبيت اقدامهم فى بلاد الشرق وتوطيد تجارتهم معه الا بعد ذلك • وكان الفيسيون (أهل البندقية) يسيطرون على تجارة الشرق وحدهم • ومنذ عام ١٥١١ بدأ الانكليز يتاجرون مع الجزر اليونانية ومع سوريا • فكانوا يستوردون الزبيب المعروف بزبيب كورثيا من اليونان ، ويستوردون التوابل ، والحرير الخام ، والقطن ، والمنسوجات الاخرى من سوريا • ولم يقتصر هدفهم من الاتجار مع الشرق على الكسب وحده ، بل ايجاد اسواق للمنسوجات الصوفية التى تفيض عن حاجة بلادهم • ذلكم لان الانكليز كانوا لا يرضون بيع ما يتراكم لديهم من اصواف خام الى الاقطار الاخرى ، خشية مزاحمة ما يصنعونه من منسوجات ، بل كانوا يجاهدون فى سبيل تصريف ما كانوا ينتجون من أقمشة الى تلك الاقطار •

وبدئ بالتجارة مع تركيا عام ١٥٣٣ عندما سافر انتونى جنكسون^(١) الى حلب • وفاز بالحصول من السلطان سليمان القانونى ، على رخصة

تجيز للتجار الانكليز المتاجرة مع الاتراك بشروط مماثلة للشروط التي يتاجر حسبها الفرنسيون والفيسيون^(٢) وسواء أادت تلك المحاولة الى الربح التجارى السريع ، أم لم تؤد فان التجار الفيسيون لم يرضوا بوجود مزاحمين لهم فى تركيا . وفى الوقت ذاته قام تجار آخرون بمحاولة ثانية لتأسيس علاقات تجارية مع أهل الصين - القطر الذى كان فيه مجال واسع لتصريف جميع ما يفيض من المنسوجات الصوفية الانكليزية . وقدر لهذه البعثة ان تفشل فى الوصول الى الصين باقتنائها الطريق الشمالى - الغربى ولذا فقد سلكت الطريق الشمالى - الشرقى . ومع هذا فقد هلك جميع اعضاء البعثة التجارية ، ولم يسلم منها الا ربان السفينة ، الذى ادركته سفينة عابرة ، فوصلته الى مكان يقع فى شمال روسيا . فلما بلغ هذا الربان موسكو ، استطاع الحصول على رسالة من القيصر الى الملك ادوارد السادس ، يدعو فيها التجار الانكليز الى ارتياد بلاده ، مانحا اياهم سوقا حرا ، وحرية مطلقة . وقد رأى جنكسون ، بثاقب رأيه ، ان المتاجرة بمدى واسع مع الشرق ، لن تتحقق الا فى اقطار تقع شرق سوريا . ولهذا فانه عندما ارسل على رأس بعثة تجارية الى روسيا عام ١٥٥٧ رفع تقريراً مستفيضاً مؤيداً فيه ما سبق ان اقترحه بشأن المتاجرة مع اقطار الشرق . وقد شق طريقه الى بخارا وسط مخاطر ، تبرر له ان يتفاخر ، بأنه أول من رفع صليب القديس جورج على مياه بحر الخزر .

ووجد جنكسون بخارا لا تليق ان تكون مركزاً للتجارة الانكليزية ومع ذلك فإن بقاءه فيها لم يكن بغير جدوى . فباتصاله بالتجار الهنود ، عرف ان بلاد البنغال لا تستهلك مقادير كبيرة من المنسوجات الصوفية .

(٢) سكان فينسيا أو البندقية .

وفى طريق عودته وجد فى مدينة استراخان بضائع انكليزية كثيرة ، استوردها تاجر ارمنى من سوريا ، وعرضها باسعار لم يكن بمقدور جنكنسون مزاحمتها . ولهذا لم يبق امامه الا بلاد فارس ، حيث المجال واسع لبيع المنسوجات الانكليزية . وبعد ان عاد الى انكلترا، استحصل رسائل من الملكة اليزابث موجهة الى قيصر روسيا والى « الصوفى العظيم »^(١) . وعاد الى الشرق مخترقا روسيا حتى مدينة قزوین وكانت مقر الحكومة الفارسية يومذاك . وقد اغتم جنكنسون فرصة قيام حرب بين تركيا وفارس ، وما اكثر ما كان يقع بينهما من حروب ، فحاول استمالة الشاه ، بعرضه عليه اكتشافه طريقا تجاريا امينا بعيدا عن الاعتداءات التركية . ولم ينجح بمحاولته تلك ، لان وفدا تركيا وصل الى قزوین واخذ يفاوض الشاه من أجل عقد صلح بين الدولتين . ومن الامور التى ساعدت على عرقلة المفاوضات مع الشاه طهماسب (شوتوماس كما كان يدعو الانكليز) جهل الايرانيين لانكلترا ، وتعذر حصول من يستطيع قراءة رسائل الملكة ، التى كتبت باللغات اللاتينية والاطالية والعبرية ، واخيرا العداء الذى اظهره مستشاروا الشاه لجنكنسون نتيجة تعصبهم الدينى الذى لعب دورا هاما فى شل تلك المفاوضات . فعندما انتهى الاجتماع الاول نهاية غير مرضية ، لمناقشة دينية جرت اثناء الاجتماع ، وترك جنكنسون القصر ، مسح الخدم مواطىء اقدامه بالرمل تطهيراً لارض القصر من النجس .

ومع ما لاقته البعثة من بداية غير مشجعة ، فانها نجحت فى مسعاها التجارى . فقد اعقب هذه البعثة تعيين وكلاء مقيمين لشركة موسكو ، وبعد ذلك بستة اعوام منح الشاه التجار الانكليز امتيازاً ، يمكنهم من الاقامة فى

(١) شاه ايران .

ايران والمتاجرة مع أهلها • وساعدت في ذلك ان الشاه نفسه أبدى رغبة في المتاجرة مع انكلترة ، وربما كان يظن من وراء تلك الرغبة اغراضا غير اقتصادية • وصادف ان سافر وكيل الشركة الى تبريز ، فوجد أسواق تلك المدينة تزخر بالبضائع الانكليزية ، التي استوردها تجار ارمن ، من حلب أو من البندقية • وكان من أعمال تلك البعثة ان عقدت صفقات تجارية ومالية مع التجار الايرانيين ، مع ما كان يكتنف التجارة من مصاعب جملة ابرزها انتشار قطاع الطرق في مختلف المسالك المؤدية للمدن الايرانية الهامة ، وشيوع القرصنة في بحر الخزر ، وشدة القيود الروسية المفروضة على التجارة الاجنبية ، وتراكم الديون بدمم المتنفذين الايرانيين ، الذين اعتادوا التلكؤ في تسديد ما عليهم من ديون •

وليس المتنفذون الايرانيون وحدهم ، الذين كان على التجار الانكليز ان يحسبوا لهم حسابا ، فان هناك بعض المتنفذين الانكليز ، الذين يتحتم على التجار كسب رضاهم • فعندما ساهمت شركة شرق الهند في طرد البرتغاليين من جزيرة هورموز فانها اضطرت الى تقديم جميع ما حصلت عليه من مغنم الى الدوق بكنجهام ، صديق الملك المدلل ترضية له • لقد جرى ذلك بعد نصف قرن من التاريخ الذي نحن بصددده ، ومع ذلك فانه يعكس صورة ما كانت تعانيه التجارة الانكليزية من مشاكل • كانت جزيرة هورموز عند بدء نفوذ التجارة الانكليزية الى ايران ، هدفا للتجار الانكليز ، سيما وانها لم تكن تبعد عنهم الا مسيرة ستة اسابيع ، وانها سوقا حيا يسيطر عليه حكامها الايرانيون • وبعد ان احتلها البرتغاليون ، ظلت طيلة قرن كامل سوقا تجاريا زاخرا بالثروة والمال • فكانت البضائع تتوارد عليها من الصين ، وجزائر الهند الشرقية ، وسيام ، والهند ، وتستبدل تلك البضائع بالحرير والخيول

ولآلىء البحرين • وكانت تجارة شمال ايران يومذاك ضعيفة بالنسبة لما كانت عليه فى جزيرة هورموز ذلكم لان الطريق الى شمال ايران طويل محفوظ بالمخاطر • يضاف الى ذلك انه لم يكن من السهل مزاحمة التجار الارمن ، ولذا فقد اضطر وكلاء الشركات التجارية الانكليزية الى ترك مراكزهم التجارية فى ايران • وقد تكررت المحاولة ذاتها بعد قرنين من التاريخ الذى نحن بصددده وللاسباب ذاتها فشلت المحاولة الثانية ايضا • وكان ممثلوا التجارة الانكليزية فى ايران ، يتمتعون بالنشاط والمقدرة؛ ومعروفون بالامانة والسمعة الحسنة • حتى ان الشاء عندما اراد تقديم هدية مالية الى الحرم الشريف بالحجاز ، فانه اشترى عملة انكليزية من اولئك الوكلاء ، زاعما ان ما كان لديهم من مال ، هو مال حصلوا عليه بطرق مشروعة ، وأساليب شريفة • بينما كان ما بين يده من مال « مجموع بطريق الخداع والضغط وبأساليب غير شريفة » • ومال جمع بالكيفية المذكورة لا يليق تقديمه الى النبى الكريم • وعلى العموم فان ثقة الناس بالوكلاء الانكليز، وما كانوا يتمتعون به من سمعة حسنة ، ثبتت اقدامهم فى الشرق الاوسط ، واتخذها التجار ركيزة لنشر تجارتهم فى هذه الاصقاع • وجاء ، ما قامت به وزارة الحربية من تصرف ، عند نهاية الحرب العالمية الاولى ، مثبتا للمعتقد السائد فى الشرق الاوسط ، بأن كلمة الفرد الانكليزى وعدا عليه • ففى نهاية الحرب ، قدم تاجر تركى ، مجموعة كبيرة من السندات المالية ، التى تثبت صحة المبالغ التى استدانها منه الضباط الاسراء من الانكليز • من كان منهم فى قيد الحياة اسرع ودفع ما كان بذمته ، ومن توفى سددت وزارة الحربية ما فى ذمته من دين •

وبذلت جهود ، اثناء الفترة التى تمت بها محاولة تأسيس علاقات تجارية

مع ايران ، من اجل تحقيق مشروع جنكسبون فى تركيا • ولان تلك الجهود جاءت بعد وفاة السلطان سليمان ، فقد اقتضى الحصول على اجازة جديدة ، لان مفعول اجازة السلطان تنتهى بانتهاء حكمه • وهذا ما دعى طائفة من تجار لندن الى ارسال مبعوث الى الاستانة ، ليمهد السيل الى بعثة تجارية رسمية • وسافر أول سفير الى الباب العالى عام ١٥٧٨ مقتفيا طريقا برياً ليكون فى مأمن من عيون مزاحمى التجارة الانكليزية فى البحر المتوسط • ومع كل ما لاقاه من مقاومة من لدن السفير الفرنسى ، فإنه وفق فى مهمته وعاد الى انكلترة حاملاً رسالة من السلطان مراد الى الملكة اليزابث ، فيها تأكيدات وافية ، يسمح بحسبها للتجار الانكليز ان يدخلوا البلاد العثمانية ، ويتاجروا مع أهلها ، ثم لهم ان يتركوها دون ان يتصدى لهم من يمنعهم عن ذلك ؛ وبالشروط ذاتها التى يتمتع بها الفرنسيون ، والفنيسيون ، البولونيون واتباع ملك المانيا •

وقد منحت الملكة اليزابث ، عام ١٥٨١ ، أولئك التجار الذين قاموا بتلك المحاولة ، براءة المتاجرة وحدهم ، مع اقطار « السنيور العظيم » - السلطان • وكان هذا التحويل بداية لتأسيس شركة الشرق^(١) ، التى ظلت قائمة حتى عام ١٨٢٥ ؛ وان كانت فى اخريات أيامها شبحاً لما كانت عليه عند أول تأسيسها • ولاقت الشركة معارضة شديدة فى عام ١٦٠٥ ، عندما طلبت تمديد البراءة الممنوحة لها ، وتوسيع مجالات فعاليتها ، بحيث تشمل القيام ببعض الاعمال السياسية ، اضافة الى ما كانت تمارسه سابقاً من اعمال تجارية فى تركيا • ومما دفعها لهذا الطلب ، ان الشركة استطاعت اطلاق سراح عدد من الارقاء الانكليز ، كما انها تمكنت من اقناع الباب العالى ،

لرفض اقتراح تقدمت به اسبانيا لعقد اتفاق عدم اعتداء بين البلدين • لان
الاتفاق سيسر لاسبانيا سحب جيوشها المرابطة عند الحدود التركية ،
واستخدامها في حرب الارمادا مع الانكليز في عام ١٥٨٨ • وفي هذا ما
يزيد من متاعب انكلترة •

ولا ريب انه لم يكن ثمة حدود معينة ، بين فعاليات الشركة
التجارية منها ، والسياسية • فمن مهام السفير مراقبة القناصل عند تأديتهم
واجابهم التجارية والادارية • ومع انه كان الممثل الدبلوماسي للمتاج لدى الباب
العالي ، فان الشركة هي المسؤولة عن رواتبه ورواتب القناصل الذين يعينهم ،
وما يحتاجونه من تكاليف عملهم الرسمي • وقد ادت معارضة مطالب
الشركة السابقة الذكر ، الى جعل وظيفة السفير وظيفة سياسية ، وتقوم
الحكومة بتعيين من يشغل هذا المنصب وبالاتفاق عليه • أما القناصل فظلوا
تابعين الى الشركة حتى عام ١٨٤١ • وعلاوة على ذلك فان الشركة هي التي
تستخدم القسس للقيام بالطقوس الدينية للجالية الانكليزية • فقد أمضى القس
ادورد بوكوك^(١) ، خمسة أعوام بمدينة حلب ، في الخدمة الدينية للجالية
الانكليزية • قبل ان يعين لاشغال كرسى استاذية اللغة العربية
بجامعة او كسفورد ، ذلك الكرسى الذى أوجده رئيس الاساقفة لود • وكان
بوكوك هذا مستشرقاً عظيماً جمع طائفة من المخطوطات القيمة التى لا زالت
مكتبة بودلين تحتفظ بها •

واستعملت القنصليات في سوريا قواعد لرحلات استكشافية هامة • ففي
الرحلة الثانية قطع الربان روبرت نيوبرى^(٢) الطريق البرى من حلب حتى
البصرة • ثم سافر من هذه المدينة الى جزيرة هورموز • ومع كل ما بذله

(١) Rev. Edward Peacock. (٢) Master Robert Newberry.

الفنيسيون من جهود ، لتحرير الحاكم البرتغالي ضد نيوبرى ، فانه مكث فى مأمن لبضعة اشهر بهذه الجزيرة ، ثم سافر منها الى بندر عباس ، ومن هذه الى القسطنطينية عبر الطريق المار من بلاد فارس فتركيا . ثم عاد الى انكلترا بعد غياب عامين عن طريق رومانيا ، وبولونيا . وتعد رحلته الثالثة أهم رحلاته الثلاث ، لانه فى هذه الرحلة ، شق الطريق الى الهند والخليج الفارسى ، ولكنه لاقى حتفه بشكل مجهول . ودون رفيقه رالف فش جميع اخبار تلك الرحلة . وفى عام ١٥٨٣ سافر نيوبرى وفش واثنان من رفقائهما من سوريا على ظهر سفينة « نمر لندن » ، السفينة التى خلد ذكرها شكسبير فى روايته مكبث ، سالكين الطريق الذى سلكه نيوبرى فى رحلته الاولى . فلما بلغوا جزيرة هورموز القى القبض عليهم وارسلوا الى غوا ، ولكنهم فروا منها متخفين . وفى طريق عودتهم اختلفوا فيما بينهم فسلط نيوبرى طريقا يذهب به الى شمال الهند ، وانقطعت اخباره ، ولم يعرف له من مصير . أما زملاؤه الباقون فعادوا الى ارض الوطن . ومع فقدان رئيس البعثة ، فان الرحلة تعد ناجحة فى مهمتها ، لانها اظهرت ان المتاجرة مع الهند عن طريق الخليج الفارسى محفوف بالمخاطر ، لما يظهره البرتغاليون من عداة نحو الانكليز ، وان الطريق الامين الوحيد هو الطريق البحرى وان كان طويلا جدا .

ومع ما كان يعانى به الرحالة الانكليز فى اسفارهم من مصاعب ومن اخطار ، فان عددا ليس بقليل منهم عاد الى انكلترا سالما . وان البعض أمثال جنكسون ونيوبرى لم تشهدهم المخاطر عن السفر الى الشرق الاوسط مرات متعددة . وكانت نسبة الوفيات بينهم عالية ، ولا تعزى تلك النسبة الى ما كان يلاقيه الاجانب من تعديات ، مع ان بعضهم ذهب ضحية تعديات قطاع

الطرق ، وان احدهم أحرقه ديوان التفشيس البرتغالى فى جزيرة هورموز ؛
وانما تعزى الى كثرة الاوبئة والامراض كالمالاريا والدستري وغيرهما •
وللتثبت من صحة تلك النسبة لا بد من مقارنة عدد الوفيات بين الاوربيين
فى الشرق الاوسط وعدد الوفيات فى انكلترة حينذاك ، وقد كان سكان
انكلترة فريسة للكوليرا وللتيفوس وحتى للطاعون • ومما كان يزيد فى
وفياتهم استعمالهم العلاجات التى هى أقرب الى السحر منها الى العلاج
الطبي •

ولم يكن من السهل على الرحالة الاجنبى تعلم لغات البلاد التى يرتادها
فكان يحرف الكلمات الشرقية ويستعملها فيما يكتبه من كتب استعمالا مشوها •
مثله كمثل الانكليزى الذى شاهد فى الهند موكب عزاء الحسين ، فكتب
يقول ان الموكب ينادى « هوبسن - جوبسن » أى الحسن والحسين •
وكان الاجنبى يسعى الى تقريب الكلمات الاجنبية الى لغته • فمثلا سمي
الشاه طهماسب « شوتوماس » والخليفة عمر « هومر » وهكذا • ولا ريب
ان جهله اللغات المحلية أوقعه فى مشاكل عدة • فرسائل الملكة اليزابث
الموجهة الى شاه ايران كانت معنونة الى « الصوفى العظيم » • والانكليز
بعملهم هذا كانوا لا يفرقون بين « الصوفى » و « الصفوى » لقب الاسرة
الحاكمة • وان نعتهم الشاه « بالصوفى » لا يعنى تعظيمه • فالصوفى درويش
يقضى حياته فقيرا • وقد استعمل اول سفير لبدى الباب العلى اللغة اللاتينية
فى مراسلاته مع الحكومة التركية • ولم يكن موفقا فى مراسلاته تلك •
ففى احدى المرات ، كتب رسالة شديدة اللهجة ، متهما الموظف التركى
المسؤول عن تحرير الرسائل ، بأنه أخطأ فى مواقع ثلاثة عند ترجمة رسالة
السلطان ؛ وطلب الا تكرر تلك الهفوات •

ومع كل ما تقدم ذكره من مصاعب ومشاكل فقد استطاع اولئك الرحالة جمع معلومات كثيرة هامة عن الاقطار التي ارتادوها • فكانت رسائلهم الى رؤسائهم فى انكلترة غير مقتصرة على المعلومات التجارية وحدها • وانما كانت تتضمن بعض الملاحظات عما يجتازون من طرق وعما يكتنفهم من أوضاع • وربما تناولت رسائلهم المعتقدات الدينية السائدة فى الشرق • ونستطيع ان نؤكد ان البعض مما جاء فى تلك الرسائل ، لا زال منطبقا على الاوضاع الراهنة بآيامنا هذه ، فى بعض اقطار الشرق الاوسط • فالسفن النهرية التى كانت تسير فى نهر الفرات ، والاكلاك التى كانت تسير فى نهر دجلة ، لم تتغير منذ ذلك التاريخ حتى الان • كذلك لم تتبدل أساليب المعيشة عند ساكنى الاهوار ، وهم يعيشون اليوم كما كانوا يعيشون فى الامس • كان عربى الاهوار يومذاك يجهل استعمال البندقية ، ويخشأها ، ولكنه منذ عام ١٩١٤ اتقن استعمال هذا السلاح ، واخذ يهدد به الناس • وكان يسرق بندقية الجندى الانكليزى النائم ، بالمهارة ذاتها عندما كان يسرق ، فى عام ١٥٨٣ ، محفظة جون الدريد من تحت رأسه •

أما التجار الانكليز فقد كانوا سريعين فى ادراك ما يسىء الى أهل أقطار الشرق ، ويتفادون ذلك • فعندما طلب شاه ايران كميات كبيرة من البضائع الانكليزية ، ومن بينها مائة فرشاة للملابس ، كتب وكلاء شركة الشرق طالين صنعها من غير شعر الخنزير • كما انهم حذروا شركتهم من نعتها الشاء بالصوفى • ولم يكن البعض من التقارير التى قدمها وكلاء الشركة عن مصادر الثروة فى الشرق ، ذات أهمية للتجارة الانكليزية يومذاك • لكنها أصبحت بعد ذلك ذات أهمية بالغة ، بالنسبة للمصالح البريطانية • فمثلا عندما قدم أحد الانكليز القاطنين فى ايران تقريراً ضافياً عن استعمال

سكان ايران ، زيت باكو وقودا ، وكانت باكو يومذاك اقليما فارسيا ، لم
يعن به ، واهمل . وبعد مضي بضعة قرون استغلت المهارة الانكليزية ،
والرأس مال الانكليزي ، في انماء حقول نفط باكو ، وحقولا اخرى في
جنوب المملكة . ودون جنكنسون في تقاريره ، ان عرق السوس يكثر عند
جانبى نهر الفولغا ، ولم يكثر احد بتلك الملاحظة ، فلما انتشرت صناعة
التبوغ ، قامت احدى الشركات الانكليزية بتصدير عرق السوس من بلاد
القوزاق ، وبلاد الاناضول ، ومن سوريا والعراق . ولا زال الكثير من
الجنود البريطانيين ، الذين خدموا خلال الحرب في العراق ، يذكرون
« المكنة » بالقرب من البصرة . ويعنون بذلك ماكنة السوس حيث تحزم
العروق وتصدر خارج العراق .

وقد بدأ الميل للارتياح يظهر عند الانكليز ، في عهد هنرى السابع ،
ونظمت رحلات الى روسيا قبل وفاة ادورد السادس . ولكن الاستكشاف
والتوسع التجارى ، لم ينمو وترعرع الا في عهد الملكة اليزابث . ويعزو
هاكلويت ذلك الى اهتمامها الخاص بتوسيع التجارة الانكليزية ، وحمايتها
لها . ومع ان هذا المؤرخ يعترف بان الاسبانين ، والبرتغاليين ، والفرنسيين ،
سبقوا الانكليز فى الارتياح التجارى ، الا انه ينوه باعجاب ، عن الاعمال
الاستكشافية ، التى قام بها الانكليز فى عهد ملكتهم اليزابث . ومما اورده
فى فاتحة « رحلاته » . - « أى ملوك هذه الارض خفقت بنوده على بحر
قزوين قبل جلالته ؟ بل أى منهم استطاع التعامل مع امبراطور ايران ،
كما تعاملت جلالته معه ، فاستطاعت الحصول على امتيازات كثيرة وحسنة
لتجارته ؟ بل من شاهد قنصلا انكليزيا فى طرابلس الشام وفى حاب
وبصرة ؟ واكثر من هذا كله ، من سمع انكليزيا فى غوا قبل اليوم ؟ » .

الحق انه لم يشاهد احد قبل عهد الملكة اليزابث ، سفيرا انكليزيا لدى الباب العالي ، بالقسطنطينية أو قنصلا انكليزيا فى طرابلس أو حلب أو بغداد أو البصرة • ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ففى آخر يوم من أيام عام ١٦٠٠ منحت الملكة شركة شرق الهند براءة منحتها بها حق احتكار المتاجرة مع الشرق كله • فان ما كان يستورده البرتغاليون والهولنديون من بضائع غنية ، اثارت اطماع التجار الانكليز ، ودفعتهم الى المساهمة بتجارة رابحة كتلك التجارة • وان اندحار الارمادا الاسبانية ، دعت الانكليز الى تحدى الادعاء القائل بان الاسبانيين والبرتغاليين هم المحتكرون لتجارة الشرق • ومما يجب الا يغفل بهذا الصدد ، ان شركة شرق الهند أسسها اعضاء شركة الشرق • وشركة شرق الهند هى التى مكنت التجارة الانكليزية من النفوذ الى الشرق الاوسط عن طريق البحر الاحمر ، والخليج الفارسى •

وأولى المحاولات ، للاتجار مع موانئ البحر الاحمر ، قامت بها سفيتان بلغتا عدن فى ابريل (نيسان) من ١٦٠٩ ، بعد ان امضتا عاما كاملا فى البحر حاملة بضائع حديدية وورصاصية وقصديرية وصوفية • ولم يقدر النجاح لتلك المحاولة ، لان عدن كانت يومذاك ميناء صغيرا ، تقطنه حامية قليلة ولعدم تيسر تصريف البضائع فى ذلك الميناء الصغير ، اضطر الوكيل العام جون جوردين^(١) للسفر الى صنعاء فى اليمن ، ومنها الى موخا ، ولكنه فشل فى اقناع باشا صنعاء ، لتخفيض الضرائب على البضائع المستوردة • كما ان الباشا حذره من السفر مرة اخرى داخل اليمن ، ما لم يحصل على جواز خاص من القسطنطينية •

وتمت البعثة الثانية بقيادة السر هنرى مدلتون^(٢) ، فى عام ١٦١٠ - ١٦١١

Sir Henry Middleton. (٢)

John Jourdain. (١)

ولم يكن مصيرها احسن من مصير البعثة الاولى * فعندما بلغ مدلتون ورفقاؤه مدينة موخا ، القى حاكم المدينة القبض عليهم ، وادعهم السجن ، ولكنهم فروا وعادوا الى سفينتهم * وانتقاما لما اصابهم ، حاصر مدلتون الميناء * وظل الميناء محاصرا الى ان غير حاكمه * واعتذر الحاكم الجديد ، مدعيا بان البعض من اتباع مدلتون اساءوا التصرف وتعرضوا بالنساء وذنسوا المساجد واحتسوا خمرة اشتروها من يهود المدينة *

وكانت الشركة تسعى للمتاجرة مع موانى البحر الاحمر ، تعويضا عما يلحقها من خسارة بمتاجرتها مع الهند * فقيمة المواد المصدرة الى الهند كانت لا تسد نفقات البضائع المراد نقلها الى انكلترة * ولهذا وجدت الشركة ، ان خير علاج للموضع ، هو نقل بعض بضائع الهند سواء اكانت انكليزية ، أم شرقية الى موخا ، لبيعها الى المصريين مقابل سبائك ذهبية * ومع ما كانت تعانيه التجارة الانكليزية من مشاكل ، فقد ثبتت أقدامها فى الشرق حتى ان الانكليز أسسوا لهم معملا فى مدينة موخا ، وبقي هذا المعمل قائما حتى أواسط القرن الثامن عشر * فمن موخا استورد الانكليز القهوة ، الشراب الذى اثر فى الحياة الانكليزية تأثيرا بالغا ، بعد ان اتخذت محلات بيع القهوة ندوات اجتماعية يرتادها الناس *

وتجدد أمل المتاجرة مع ايران ثانية بعد ان ارسل الشاه رسائل الى جيمس الاول والى غيره من حكام اوربا * وكان مبعوث الشاه روبرت شيرلى^(٢) احد الاخوين الانكليزيين الذين وضعوا أسس الجيش الايرانى النظامى * وكان الغرض الاول من ايفاد شيرلى هذا ، ايجاد اسواق للتحرير الايرانى الخام * ومع انه فشل فى مهمته لشدة الشروط التى كان الايرانيون يفرضونها ، فقد ساهم فى ايجاد علاقة تجارية مع انكلترة ، عندما استصدر

من الشاه ثلاثة أوامر شاهانية تجيز لبواخر شركة شرق الهند ، دخول موانئ الخليج • ونتيجة لذلك اتخذت جسك قاعدة للتجارة الانكليزية ، حيث قامت الشركة بشراء سبعين بالة حرير ، باعتها الى الشركات الانكليزية الاخرى بارباح عالية •

ولاقى محاولة الانكليز ، للنفوذ الى تجارة ايران عن طريق الخليج الفارسي ، مقاومة عنيفة من لدن البرتغاليين • ومع ان انكلترا كانت على وئام مع اسبانيا سنة ١٦٠٤ و البرتغال كانت احدى مقاطعاتها ، فان البرتغاليين الموجودين في الهند لم يستقبلوها الاستقبال الحسن • وانهم لم يكتفوا باستعمال اساليبهم السياسية ، للتأثير على ملك الهند ، المغولى الكبير ، لمنع الانكليز من النفوذ الى الهند • بل واوعزوا الى سفنهم ، التى لم تكن محصنة التحصين الكافى ، لمهاجمة السفن الانكليزية • ومع ان السفن البرتغالية صدت على اعقابها ، فان السفن الانكليزية تكبدت خسائر كبيرة • وامتد الصراع بين الاثنين الى الخليج الفارسي ، حيث اضطرت السفن الانكليزية المثقلة بالحرير الايراني ، الى صد هجوم برتغالى عنيف ، الامر الذى صير البرتغاليين فى عدااء مع الشاه • فلما جاءت نجدة برتغالية الى جزيرة هورموز ، استنجد الشاه بالانكليز ، لابعاد البرتغاليين من الجزيرة ، واستردادها منهم ، مهددا فى حالة رفض الانكليز طلبه الغاء جميع ما منحه لهم من امتيازات تجارية • وقد ادى الهجوم المشترك على البرتغاليين فى الجزيرة ، الى طردهم منها ، والى اتخاذ جاسك على ساحل الخليج مركزا تجاريا بدلا من الجزيرة • واخذت التجارة الانكليزية فى جاسك بالازدهار ، ولا يعزى الفضل فى ذلك الى التخلص من مزاحمة البرتغاليين ، بل الى فقرة وردت فى الاتفاق المعقود بين الشاه والانكليز • تعفى البضائع الانكليزية بحسبها من الضرائب

الكركية وتشترك السلطات البريطانية بما يجنى من ضرائب على البضائع
الاجنبية الاخرى . ولما وجد ان جاسك لا تفي بالغرض ، نقل الانكليز
مركز تجارتهم ، الى بندر عباس ثم الى ابى شهر . واسست شركة شرق
الهند ، عام ١٦٤٠ ، مصنعا لها فى البصرة ، ولضعف التجارة انكليزية مع
العراق ، قضى على المشروع ولم يمض على تأسيسه اكثر من عشرين عاما .
ومع ان الخطر البرتغالى تقلص فزال ، فان السفن الاوربية التى تبحر
نحو الشرق ظلت عرضة لهجمات القرصان العرب . وقضى على هذا الخطر
باتفاق دولى مشترك ، عقد عام ١٧٧٠ ، عهد بحسبه الى الافرنسيين أمر
حراسة الخليج الفارسى ، والى الهولنديين أمر حراسة البحر الاحمر ؛
بينما تعهد الانكليز بحراسة البحار الجنوبية .

واعيدت فى القرن الثامن عشر محاولة المتاجرة مع شمال ايران عبر
روسيا . وجاء تفصيل هذه المحاولة فيما كتبه جوناى هونوى^(١) فى رسائله .
وكان هونوى هذا ، يتحلى بشجاعة جسمية ، مكنته من التغلب على المخاطر
التي جابهها فى ايران ، لا تقل عن شجاعته المعنوية ، يوم ان حمل أول مظلة
شهدتها لندن . وعندما تحدى صاموئيل جونسون ، وهاجم محلات شرب
الشاي باحدى رسائله . وكان الهدف الاول لتلك المحاولة بيع الاصواف
الانكليزية ، وشراء الحرير الخام من ايران . وكانت شركة الشرق ترغب
فى عدم مزاحمة التجار الارمن ، الذين اتخذوا حلب مركزا تجاريا لهم ،
والذين كانوا يجلبون البضائع الانكليزية عن طريق حلب الى ايران ؛ سيما
وانه كان فى الامكان شراء الحرير الايرانى الخام فى أسواق سنت
بترسبورغ . ولكى تتحاشى الشركة الروسية (الانكليزية) وساطة الوسطاء

التجارين ، استحصلت على اجازة من الحكومة الروسية عام ١٧٤٣ ،
للمتاجرة مع موانئ بحر قزوين . وسمح للشركة ان تبني سفينة في روسيا ،
لتستخدمها في تجارتها في بحر قزوين . وحاولت الشركة ان تبني سفينة
اخرى فلاقى صعوبات جمّة ، مردها ظهور المزاخمة التجارية الروسية .
والحقيقة ان العداء الروسى جاء نتيجة تصرفات البعض من الانكليز ،
أمثال جون التون^(١) ، الذى بدأ حياته بحارا ، ثم صار وكيلا للشركة
الروسية في شمال ايران . وفى اثناء وجوده في ايران ، استخدمه الشاه ،
لبناء سفن لمخر عباب بحر قزوين ، « على غرار السفن الاوربية » . ولم
يكن متوقعا كما يقول هونوى ، ان يرحب الروس بظهور سفن ايرانية ،
تجارية أم غير تجارية . فى بحر قزوين . وخوفا من أن يتكر الروس
للشركة استخدمت ما تتمكن عليه من ضغط ليعتزل ألتون خدمة الشاه .
ولكنه رفض ذلك ، ويقال ان الشاه لم يسمح له باعتزال الخدمة . وبعد
جهود جبارة استطاع بناء بعض السفن ، مع كل ما كان يعانيه من عدم رغبة
الايرانيين فى العمل ، لانهم كانوا يسخرون اليه بدون اجر وبدون طعام .
وربما كانت المزاخمة التجارية وحدها كافية لوضع نهاية للمحاولة
الانكليزية . ومع ذلك ، فقد كان للقنصل الروسى فى شمال فارس من
الاسباب ، ما يبرر له مقاومة التجار الانكليز فانه عجز عن فرض ضرائب
على التجارة الانكليزية ، شأن ما يفرضه على التجار الارمن ، وهذا ما جعله
ان يقنع السلطات الروسية فى استراخان ، بمنع السفينتين الانكليزيتين من
العودة الى ايران ، بزعم ان أى بضاعة فارسية تنقلها تلك السفن لا بد وان
تكون ملوثة بمرض الطاعون . وكان من نتائج تلك المقاومة ان باعت

الشركة الروسية ، السفينتين الى مزاحميها من التجار الروس بثمان بخص •
وفى عام ١٧٤٦ ، منعت الحكومة الروسية ، الانكليز من المتاجرة مع مدن
بحر قزوين • وبعد مدة وجيزة من هذا المنع ارتحل وكلاء الشركة عن
ايران • وعندما حدثت الثورة التى اعقبت وفاة نادر شاه ، بلغت قيمة البضائع
المنهوبة من مخازن وكلاء الشركة نيف وثمانين ألف جنيه • ويظن الوكلاء
ان اكثر تلك المنهوبات ، ذهب الى الروس ؛ وازدحمت دار القنصلية
الروسية بكثير من البضائع المنهوبة •